

الدار المغربية (بقلم عبدالعزيز بنعبدالله)

احتفظت الهندسة المعمارية في الدور و القصور بتصميمها وهندامها الذين أصبحا المظهر التقليدي منذ نهاية العصر المريني أي منذ نحو خمسة قرون فالباحة الداخلية التي تتصل بالخارج عن طريق ممر منحرج (سطوان) - يتناسب مع لوازم الحجاب العرفية - كانت محاطة بأروقة مستطيلة "وسط الدار" يوجد أحيانا بهو منمق الجدران كباقي أجزاء المنزل علاوة على سقاية أو فسقية فوارة، و يرى المؤرخ (جورج مارسلي) أن الدور المغربية تتسم بمياسم ثلاثة أو ترجع إلى ثلاث مدارس :

1- مدرسة الرباط و سلا و مدن الساحل

2- مدرسة مكناس و فاس

3- مدرسة مراكش و مدن أخرى في الجنوب

فالتصميمات واحدة في هذه المدارس و إنما يختلف الهيكل العام و معالم الزينة تبعا لهذه الأقاليم فالأسلوب الموحد يغلب في المدن ذات الطابع الأندلسي حيث تحيط مثلا الحنايا و أقواس الحجر المنحوت بوسط الدار، و قد امتد هذا اللون إلى فاس رغم إنفاة السمة المرينية على معالمها و تلاحظ أحيانا تأثيرات أوروبية ربما عادت إلى استعانة السلطان محمد الثالث بمهندسين و صناع من السويد و الدنمارك التين كانتا تؤديان للمغرب في القرن الثاني عشر الهجري إتاة سنوية مقابل حماية المغرب لسفنها من القرصنة المتوسطية.

و تحتوي دور الرباط و باقي الحواضر الكبرى على طبقتين أو طبقات تتوافر فيها مظاهر الزخرفة و التتميق بينما يتبسط الأسلوب في بعض مدن الشمال كوزان و تازة.

و سواء في الجنوب أم في الشمال فإن الطوب و الأجر يتعارضان مع الأحجار غير المنحوتة و المكلسة في العدوتين اللتين تمتازان بنصاعة البياض في جميع حناياهما بينما يسود اللون القاتم في مراكش الحمراء و غيرها من دور الجنوب، وكانت معظم الدور الكبرى بالرباط تشتمل على روض يشغل جناحا خاصا بأروقته و غرفه و قد عرف هذا التصميم في المغرب منذ عهد عريق اقتبسه المغاربة من الرومان عن طريق الأندلس أو مباشرة نظرا لوجود مدن رومانية بالمغرب - وخاصة منها و ليلي - امتازت بهذا الطابع الهندسي الخاص فدور و ليلي (أو قصر فرعون) الرومانية تتوفر على ساحة داخلية (هي وسط الدار) محاطة بأروقة أو أبهاء ذات أساطين (نبوحة) للتهوية مع فسقية فوارة بالإضافة إلى وجود دويرة Atrilum تضم المطبخ و الحمام البخاري و إسطلب الدواب لها باب خاص Porte de service و ربما تتصل أحيانا بصقلبية أي غرفة للخدم تستمد اسمها من الحشم الصقلبية بالأندلس على أن الأثر الإغريقي واضح أيضا في هذه الدور التي ازدوجت فيها المعطيات الرومانية و اليونانية في نسق جديد لم يعرف إلا في حواضر إفريقيا الشمالية، و قد اعتبر الرومان هذا الإقليم بمثابة مجموعة جديدة لم يتفقدوا فيها بقاعدة معمارية فلماذا طبعوا الدار الرومانية بالطابع الهيليني و أشاعوا الأسلوب القاضي بجعل الساحة المحاطة بالسوراري المركز الأساسي في صلب الدار و هو ما نعرفه بوسط الدار بينما أصبحت الفيلات العصرية اليوم أقرب في هندستها إلى الشكل المبثدل في أوروبا و بقية العالم الحديث.

فالدار الوليلية قبل الإسلام و بعدها و الدار العربية على إثر الفتح الإسلامي صارتا تهدفان إلى تحقيق الأسلوب المحوري الصرف و الترتيب التناسقي الكامل Symétrie مبشرة بالنموذج الجديد الذي ظهر منذ القرن الرابع الميلادي في مدينة أوستي الرومانية Ostie الواقعة على مصب نهر التبر Tiber حيث تدور جميع مرافق الدار حول نقطة مركزية هي ساحة منفتحة تحدد بها أساطين و أبهاء و تمد الغرف المحيطة بالنور و الهواء و بذلك يشكل التصميم الوليلي مرحلة هامة في تاريخ الهندسة المعمارية في العالم الروماني عامة و في إفريقيا الشمالية خاصة و يضاف إلى كل ذلك الفسيفساء التي كانت تلبط بها القاعات و هي التي استحال إلى الزليج أو الزليجي بالمغرب و الأندلس منذ العصور الوسطى على أن المدن المغربية توجد بها دور بدون أروقة و لا أبهاء (نبوحة) و لعلها مظهر للتأثير الفينيني في المغرب و إن كان البعض يرى أن الدور البونية القرطاجية كانت خالية من أية ساحة داخلية، و بذلك تكون الهندسة المعمارية في الحواضر المغربية امتدادا لتراث متسلسل عرف في العهد الكنعاني الفينيني إلى العصر الروماني مطعما بالعناصر القوطية الأندلسية أو الإسلامية الشرقية غير

أن الظاهرة البارزة في الحاضرة المغربية هي أنها احتفظت رغم تطورات العصر الحديث بهذا الطابع الأصيل.

ولا شك أن هندسة دور الرباط تأثرت بالفن المعماري الأندلسي خاصة من طرف مهاجري قرطبة و رندة و دانية وان كانت الحفريات لا يوجد بها ما يشهد ببنائات خاصة في عهد المهاجرين الأوائل عدا مسحة من الآثار الأندلسية في الأقواس (حسيما ورد في كتاب الرباط و ناحيتها م.ا ص 161) و كذلك أسطوانات بعض الدور " و زعم (Mercier) أن منارات المساجد مقتبسة من صوامع الكنائس الأسبانية و نحن نتساءل من أين اقتبست هذه الكنائس ؟ هل المقتبسات عربية الأصل ؟

و قد أكد Lamprière (لامبريار) أن هذه الدور كانت جيدة البناء كما أشار شينيبي (Chenier) إلى وجود أكوخ بالمدينة (Pierre de Cenival, la maison de Louis Chenier p.32)

و قد ذكر شينيبي (م. 3 ص 28) بصدد الحديث عن فقدان الرباط من قيمتها بعد أو قبيل وفاة المنصور - أن الكثير من دورها تهدم لأن الأسارى الأسبان الذين بنوها تعمدوا رداءة البناء ليروها متساقطة على المور و لذلك قتل الأسارى المسيحيون و علقوا رؤوسهم على إحدى أبواب السور.

Chenier (Louis de ..) : Recherches historiques sur les Maures et histoire de l'Empire du Maroc. 3 vol. Paris, 1787

و من مرافق الدار «مصرية» أي عالية قد تصل إلى مستوى صالون كبير له درج خاص متصل بالأسطوان (و الأسطوان عبارة عن مدخل مستطيل للدار مع انعراجات تجعل الغرف الداخلية في معزل عن أعين الرقباء و المتطلعين). و (المصرية) (صقلبية) هي إما غرفة نوم للإماء و الخادمت (من كلمة صقلبي التي اقتبس منها الغربيون كلمة esclave) أو خزين للمؤن و الأثاث القديم. و قد يكون للدار طابق أول أو أكثر (و هو نادر) يتخذ نفس الشكلية المعمارية مع درابزين دائري يطل على الباحة الداخلية التي تشرع إليها كل المنافذ و تستمد الهواء النقي من السماء العارية لانكشاف أعلاها و بذلك تقل - إذا لم تنعدم بالكلية - تيارات الهواء المعكوس. و قد بدأ التصميم الغربي يؤثر تدريجيا إبان (الحماية) بسبب تدخل مهندسين معماريين أجانب في تخطيط التصاميم، فأصبحت الدار المغربية العصرية عبارة عن (فيلا) أو (دارة) تجمع بين العنصرين. و أمسى من أبرز خصائصها باحتها المغطاة، و الحديقة التي تحيط بها من كل الجوانب أحيانا، و النوافذ الواسعة المشرفة على الخارج.

و تشير المصادر العربية إلى زخرفة الدور بالأقواس منذ أوائل عهد المولى سليمان (1206هـ/1791م) (تاريخ الضعيف ج 1 ص 323) كما نص صاحب (الاستقصا ج 4 ص 233) على أن ذوي اليسار اتخذوا منذ عام (1290هـ) المراكب الفارهة و الكسي الرفيعة و الذخائر النفيسة كما تأنقوا في البنيان بالزليج و الرخام و النقش البديع لاسيما بفاس و رباط الفتح و لاحت على الناس سمة الحضارة الأعجمية (الاستقصا ج 4 ص 233).

و قد عرف بنو مرين بوفرة المهندسين في عهدهم لاسيما في عاصمة فاس حيث تمكن (أبو الحسن المريني) من بناء دار بكامل مرافقها في ظرف أسبوع واحد تحتوي على أربع غرف برواقين مع اختلاف في النقش على الجبس و أصناف الزليج الخزفي و زخرفة أخشاب الصنوبر علاوة على التسطيرات الهندسية و الصور الزهرية و المرمر الصقيل و الأقفال النحاسية المذهبة (مجلة هسبريس م 5 ص 76 نقلا عن "المسند" لابن مرزوق).